الشخصية المصرية بين مركزية العقل والتكامل المعرفي

الأستاذ الدكتور/ محمد عباس إبراهيم

أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

مدخل

المعرفة من التفكيك إلي إعادة التأسيس

التكامل العرفي وتمكين الوعي

الشخصية والثقافة : وحدة في التكامل المتبادل

مركزية العقل وضوابط حرية الفكر

مركزية العقل وقيادة الثورات الكبرى

مركزية العقل المصري : حالة من الالتباس !!

الإخوان في المشهد : والفشل بامتياز !!

الشخصية المصرية : حالة انفراد محير !!

خاتمة بلا نهاية

مقـــدمـــة

يعد موضوع الشخصية المصرية القومية وعلاقته بمركزية العقل والتكامل المعرفي قضية شائكة أمام الباحثين على المستويين النظري والعملي ، ما لم يكن الباحث متسلحاً بمنهجية علوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) حتى يستطيع وبنظرة موضوعية أن يقف أمام الابتزاز الذي يشيع – لا سيما – بين أوساط المثقفين المصريين والعرب ، ويتخذون من سمات الشخصية القومية " مطية " لتزايد جلد الذات وعرض سلبياتها ، عندما يقارنون بين الشخصية " الذات " وبين الآخر .

تقدم هذه الورقة تحليلاً موضوعياً للشخصية المصرية بمنهجية متأنية في التلامس ع البعد الحضاري الزمني ، من خلال استلهام واقع الشخصية المصرية بصورة محايدة وصولاً إلي معرفة أسباب وعوامل وتراكمات ايجابياتها وسلبياتها ، وعما إذا كانت تتسم بالإنتاج الحضاري الثقافي ، أم هي فقط مستهلكة لمنتج الغير من الثقافة .

فالشخصية المصرية القومية كلٌ متكامل لا يتجزأ ، هي ليست الشخصية السياسية وممارساتها فقط ، وإنما هي كلٌ متكامل من واقعها البيئي وبنائها الاجتماعي والثقافي وعوامل التربية والتنشئة والتعليم ، وممارساتها على كافة الأنشطة في أساليب الحياة اليومية . هي كلٌ متكامل من الاندماج النوعي (الجندر) القائم علي توزيع اختصاصات الأدوار الذكورية والأنثوية ، ومدى الإسهام الحقيقي لتطبيق مبادئ المشاركة والتواصل والاندماج ومواجهة صعوبات الواقع المعاش .

الشخصية المصرية القومية هي حالة خاصة في عموميتها ، وخاصة الخاصة في أدق خصائصها ، وهنا يكون التلازم بين الثقافة والشخصية القومية وبين الثقافات الفرعية والشخصية القومية هي محكات لابد وأن تؤخذ في الاعتبار عند استرجاع واستذكار ما يميزها من سمات وعلاقات خاصة فيما بينها .

الشخصية المصرية القومية هي " مركب ثقافي **Cultural Complex** " عبر العصور ساهم في بنائها أحداث ووقائع ومنية ومجتمعية جعلت منها أو علامات

متميزة في وجود القوميات الإنسانية عبر العصور . هي كل متكامل من العلم والمعرفة والفن والتاريخ والموقع الجغرافي الفريد والمتميز والقيم السلوكية والدين ... وغيرها .

وتتخذ الورقة الراهنة من الاستفهامات الأربعة الآتية قضايا بحثية تتلمس الاقتراب من المخزون الحضاري للشخصية المصرية وكشف سماتها ومقومات بنائها .. وهي :

أولاً : هل الشخصية المصرية القومية هي من صنعها التاريخ الثقافي الحضاري ، أم هي صانعة تاريخها وحضارتها ؟

ثانياً : ما دور مركزية العقل متمثلاً في نشاط " العقل الجمعي " و " الضمير الجمعي " وعلاقته بالمضمون " المحير " للشخصية المصرية ؟

ثالثاً : ما هي حدود إسهامات الشخصية المصرية القومية في مضامين المعرفة الإنسانية والتكامل المعرفي عبر العصور بين الأخذ ... والعطاء ؟

رابعاً : كيف تتعامل الشخصية المصرية القومية في ضوء سماتها العامة والخاصة مع الملمات والأزمات الكبرى الداعية إلي قيام الثورة الشعبية الجامعة ؟

ولكي تستجلي هذه الورقة أبعاداً عن حقيقة الترابط ما بين الشخصية القومية والثقافة ومابين أداء مركزية العقل والتكامل المعرفي أجد لزاماً عليا ومن منطلق الوحدة المنهجية في التحليل والتفسير ، أن أستعرض موروث الفكر الاجتماعي في قضايا الشخصية بأبعادها المختلفة ، فضلاً عن الدور الذي قامت به المعرفة الإنسانية في السعي نحو وحدة الأنماط السلوكية للبشر في الحياة قدر الإمكان ، وإن كان تحقيق ذلك قد يكون درباً من دروب الخيال وأيما كان موضوع النقاش فإن التراكم المعرفي لرصيد الإنسانية في الثقافة والحضارة بماديتها ومعنوياتها ، وحالتها من التركيب إلي التفكيك ثم العودة مرة أخري من التفكيك إلي إعادة التأسيس للنظم المجتمعية وتنميطها الفكري وما بينهما من تنوير وتحديث هو المنطلق الرئيس والمدخل المنهجي التحليلي في رصد ماله صلة بموضوعنا الراهن .

المعرفة من التفكيك إلي إعادة التأسيس

لعل الحقبة الأكثر جدلاً حول التكامل المعرفي وما بين تركيب المعرفة وتفكيكها تلك التي تشير إلي الانتقال من التقليدية إلي الحقبة الحداثية ، وهذا الانتقال لم يكن مجرد عبور مرحلة تاريخية ، ولا مجرد العبور من نموذج فلسفي صوري أو منطق أرسطي إلي آخر وضعي عملي يتأسس على منهج تجريبي وجدل معرفي ، إنما الانتقال بالتكامل المعرفي هو كل ما تقدم وأعمق بكثير عن ذلك . هو تحول في رؤى الإنسان الغربي ونظرته إلي الوجود ، وكل ما ينبثق عنه من قواعد عمل ، وممارسات سلوكية ، مهدت لقطيعة جذرية مع الماضي البشري في أعمق خصائصه وضوابطه ومنطلقاته السلوكية الراسخة عبر آلاف السنين ، وهو قدوم صاخب لأكثر من خمسة قرون زمنية مضت ، زاهياً ومهيمناً فيها على الثلاثة الأخيرة منها متفرد بفنون إبداعاته العلمية والتكنولوجية والإلكترونية ، وما بعد الثورة الإلكترونية في تلاحق متنامي من رصيد وتراكم المعارف المعاصرة .

يتضح مما سبق أن المفاهيم الرئيسية والجوهرية في حياة الإنسانية مثل التغير والتقدم والحضارة والنهضة والحداثة ما هي إلا عمليات " للتنوير " وإن اختلفت في درجاتها ، ويحتل أداء العقل فيها سلطة مركزية ، مقرونة بتأسيس النظم الاجتماعية للمجتمع ، وهكذا يقوم العقل بنقل المجتمع من حالة الجمود والاستكانة حيث التقاليد الجامدة ذات التأثير السلبي على أداء العقل ، إلي حالة الانطلاق نحو الآفاق الرحبة للإبداع والتأمل وإنتاج الأفكار التي تسهم في تأسيس " العقد الاجتماعي " الجديد الذي يقوم على إرادة الإنسان الجمعية ، وعلى مركزية الفرد الحر (١) القادر على الفعل الجيد المستحدث ، وبلورة ثقافة الحرية والمساواة والالتفاف حول ذاتية الوطن ومركزية العقل .

بالعقل والفكر يحيا الإنسان ويعيش ، ويدرك ما حوله من موجودات فيتعامل معها ويسترجعها في صورة منتج آخر أو منتج جديد ، فها هو الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت **Rene descartes** ٣١مارس ١٥٩٦ – ١١فبراير ١٦٥٠ م يستحضر دور العقل وأهميته بقوله ... " أنا أفكر فأنا إذن موجود " فالوجود في نظره يكون منقوصاً

إذا لم يرتبط بالقدرة على التفكير . وهكذا تميزت مرحلة التغير الفكري والتغير المادي (الثورة الصناعية) في أوروبا الغربية بسلطة العقل ومركزية التفكير (٢) هذا الاتجاه الذي كان دافعاً إلي بناء النظريات السياسية للعقد الاجتماعي ، والتي تقوم على سلطة حيادية ومستقلة عبر عنها الفيلسوف الاجتماعي وعالم السياسة توماس جابرييل هوبز Thomas Hobbes ٥ أبريل ١٥٨٨ ٤ ديسمبر ١٦٧٩ م بتأسيس نظام سياسي محايد يتمثل في الدولة المهيمنة أو السلطة المطلقة . بينما عبر عنها جون لوك John Loke ١٩ أغسطس ١٦٣٢ – ٢٨ أكتوبر ١٧٠٤ م بسلطة القانون ، أما جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau

٢٨ يونيو ١٧١٢ – ٢ يوليو ١٧٧٨ م فقد وصف العقد الاجتماعي بالإرادة العامة ، تلك الفلسفات العقلية أسهمت بوضوح في نهضة الفكر والصناعة والاقتصاد والاجتماع ، واعتبرت الفعل الرشيد القائم على حساب الوسائل والغايات التي تحقق المنفعتين العامة والفردية نموذجاً مثالياً للفعل ، وهو ما تبناه المفكر الألماني ماكس فيبر Max Weber ٢١ ابريل ١٨٦٤

١٤ يونيو ١٩٢٠ م بتشييده نموذجاً عن العقلانية ودورها في بناء المشروع الرأسمالي والفعل الرشيد في مقابل البيروقراطية والفعل الرشيد . كما لا يفوتنا الدور الذي قام به المفكر الإيطالي فلفريدو فيديريكو داماس باريتو Vilfredo Federico Damaso Pareto ١٥ يوليو ١٨٤٨– ١٩ أغسطس ١٩٢٣م حول تبنيه ما يعرف بالفعل المنطقي والفعل غير المنطقي.

تلك مرحلة زمنية مرت علي الواقع الأوروبي أثناء ما عُرف " بعصر العقل " وهي الفترة التي امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلي أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين . وهي كتابات وإسهامات دارت حول تأصيل منهج التعرف " العقلي " على أصول الأشياء والموجودات وربما كان ذلك واضحاً في الفكر " الديكارتي " ، ثم اتجهت الفلسفة العقلية إلي ما يسمى بالفلسفة الاجتماعية أو أسس ومبادئ الفكر الاجتماعي فكان للسياسة فيها نصيب أكبر فها هو جان جاك روسو يؤكد على أهمية " الحرية " الفردية في

إطار منظومة من الحريات الأوسع والأعم فيناقشها من خلال كتاباته الأدبية والفلسفية فتكون مؤثرة في تشكيل الأحداث السياسية من جهة ، ومؤثرة بشكل مباشر في قيام الثورة الفرنسية من جهة أخرى . ويسير على ذات الدرب المفكر الفلسفي الاجتماعي الإيطالي فلفريدو باريتو المولود من أب إيطالي وأم فرنسية فيري كتاباته عن " الصفوة " أن المجتمع الإنساني كيان نسقي متكامل يكمل فيه كل نسق النسق أو الأنساق الأخرى ، أما ما يحرك المجتمع وأحداثه فهو ديناميكية دور الصفوة المجتمعية ، فهم وحدهم في نظر باريتو القادرون علي قيادة الأحداث السياسية والمجتمعية ، وإن كان هذا الطرح فيه بعض الانتقاد لأنه يؤصل لفكرة طبقية الصفوة المثقفة علي حساب الجمهور العريض من عامة الشعب ، فيصبح عقل المجتمع وإدارته في دورة طبقية على حساب الجمهور العريض .

وعلى الرغم من كل ما يثار حول مركزية العقل الأوروبي الداعي للحرية في مفاهيمها وقواعدها الجديدة في المجتمع الأوروبي المتغير ، إلا أن حرية العقل ، وحرية الفكر والتخلص من الضوابط القهرية لديكتاتوريات السلطتين الدينية (الكهنوتية) والسياسية (البرجوازية) جعلت من الكيان الأوروبي يعيش حرية العقل المركزي ، وهو ما ساعد في تراكم المعرفة الإبداعية في شتى المجالات . تلك هي مراحل العقل المنتج الذي يكتسب حريته ويعمل في كل متكامل من الاتساق والتوائم المجتمعي .

التكامل المعرفي وتمكين الوعي

تشكل قضية مركزية العقل وحرية الإبداع والتكامل المعرفي وانعكاساتها على المقومات الأساسية لبناء الشخصية القومية بعداً منهجياً وأبعاداً موضوعية ذات صلات مترابطة في إشكالية زاد فيها ويزداد الجدل المعرفي الإبيستيمولوجي **Epistimology** وقد برهن على ذلك ودلل عليه ما جاء بتوصيات التقرير العالمي للعلوم الاجتماعية الصادر عن منظمة اليونسكو عام ٢٠١٠م (٣) فقد ركز في إحدى توصياته بما أسماه "بموجة ما بعد تفكيك المعرفة أو ما بعد تفرع وتشعب وتعدد وتنوع التخصصات !! حيث اقتضت المرحلة العلمية الجديدة وتقتضي السير في سياسة "

مقاربة " جديدة مبدعة خلاقة لديها القدرة والشجاعة على استحضار جميع التخصصات الفرعية سواء ما كان منها في حقل العلوم الطبيعية البحتة أو في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية .

تلك قضية أو إشكالية وإن كانت في مسار إجراءاتها تشير إلي النشاط المعرفي المتصل بمعطيات ما يسمى " بحرفة العلم " إلا أنها في ذات الوقت تشير إلي قضية أكثر عمقاً في البحث عن إيجاد سبل وبرامج عملية خاصة " بتمكين الوعي " . أو ما يمكن أن يطلق عليه علم " المنهجية " في الطرح والتعامل والتدريب على التفكير السليم، والبحث في قضايا الممارسة والتعامل الرشيد مع مسائل العلم والمعرفة في شتى المجالات فهماً وتوظيفاً وتطبيقاً وهو مسار طبيعي جاء كرد فعل لما خلفه " عهد الحداثة "الغربية من تطور ناجح في تحقيق وعوده في زيادة المعرفة والتقدم لمتطلبات الحياة اليومية واحتياجاتها المادية ، كما خلف في نفس الوقت آثاراً سلبية في عدة مجالات من بينها "المجال المعرفي " الذي اتخذ من الاستغراق في " التجزئة " المستمرة طريقاً نحو التخصصات الدقيقة ، وهو ما نجم عنه أنظمة (تربوية) تبحر في زييف نحو الوصول إلي أجزاء الحقيقة المختزلة ، البعيدة عن الصورة الكبيرة الكلية للواقع المعاش ، روج لها منتفعون من عدة أطراف ، فأصبحنا نعرف أكثر فأكثر عن الأشياء الأقل فالأقل !! في الوقت نفسه _ مع الأسف _ أصبحنا نعرف أقل فأقل عن الأكثر فالأكثر . فالعقل الخلاق ، ومركزية العقل لا يقدم شيئاً في التكامل المعرفي (٤) إلا إذا كان مرتبطاً بتراثه قادراً على الاستيعاب والتجديد ، منفتحاً في رؤية تكاملية للتفاعل الإيجابي مع تراكم العلوم والمعارف ، محافظاً في ذات الوقت على هويته الذاتية وشخصيته القومية التي _ يجب _ ألا تكون قابلة أو خاضعة للمساومة عليها تحت أي ظرف من الظروف .

نستخلص مما سبق أن المقصود بالتكامل العرفي :

"هو التكامل في المصادر والأدوات والمدارس العلمية والثقافية ومنتجها من التنشئة والتطبيع في المُثل والقيم والأخلاقيات المنشودة التكامل بين الوصف الكمي والتقدير

الدقيق بالحساب لقضايا الفكر ومشكلات المجتمع وبين الوصف الكيفي مانح التفسيرات والتحليلات والدلالات والمعاني العميقة لطبائع الأشياء "

تلك رؤية أنثروبولوجية تختص برؤى علوم الإنسان في نظرة متكاملة لوجوه التكامل المعرفي والتعاطي المنهجي مع الأخذ في الاعتبار أن وحدة العلوم لا ينفي تكاملها ، وكذلك العكس ، أما استخدام أحد المفهومين منفرداً فيتطلب معالجة منهجية خاصة ، فالقول بوحدة العلوم هو أقرب إلي وصف العلاقة بين العلوم على المستوى الوجودي أي ميتافيزيقية النظرية أما القول بالتكامل فهو أقرب إلي وصف العلاقة بين العلوم في مستواها المعرفي الإبيستيمولوجي (٥) وهنا يأخذ الموضوع بعداً منهجياً عملياً وتعليمياً .

ولتوضيح ما سبق بمثال حين تتكاتف وتتكامل جهود العلماء من ذات التخصص العلمي الواحد ساعين إلي حل مشكلة علمية بعينها وتحقيق انجاز فيها _ بفضل تجميع الجهود الفردية لهم _ بناءً على رؤية أكثر عمقاً واتساعاً وموضوعيةً . هما يصبح التكامل ضرورة لحل مشكلة ما أو مشكلات كبرى في مجال التطوير التكنولوجي والإلكتروني والطب والهندسة وقضايا المجتمع في الأمية والمجاعات والكوارث ومراحل الانحطاط وقضايا الكثافة السكانية والتدهور الأخلاقي .... الخ . وهنا يكون التكامل المعرفي ضرورة متضمنة تكامل وتكاتف جهود العلماء في الأجيال المختلفة ، فيبني كل جيل على خبرة الجيل وخبرات الأجيال التي سبقته ، وهو ما يتم في تكامل جهود الأمم والشعوب .

الحديث عن التكامل المعرفي لنشاط الإنسان على الأرض لا ينفي علاقة السماء بالأرض تلك العلاقة المتكاملة في رؤيتها الثلاثية { الله .. والعالم .. والإنسان } وهو تركيب معرفي له دلالاته ومفاهيمه ومعانيه التكاملية الأكثر اتساعاً في السمو والكتب المقدسة والروابط الروحانية الصافية ، توجت بشكل تكاملي في النسق القرآني وهدي تعاليم الإسلام من شمول وعمومية في الرؤية لمنهج ضبط العلم والعمل في استنباط الأحكام من مصادرها الأصلية ومقاصدها البهية يتوجها نجاح في الفقه وأصوله . في قوله تعالى : " قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلي عالم الغيب

والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " صدق الله العظيم سورة التوبة الآية رقم (١٠٥) وفي الحديث الشريف : إذا حب أحدكم أن يعمل عملاً فليتقنه " فالتكامل المعرفي في شتى مجالات العلم إن لم يتخذ من عمليات الضبط والتدقيق والتوثيق والنقد سنداً وسبيلاً فلا أمل _ إذن _ في التقدم المعرفي الإيبستيمولوجي .

ومن نافلة القول _ أو من عجب العجاب !! _ أن الوسائل المنهجية التي تقدم الغرب بها في تطبيقاته العلمية منذ ظهور عهد الحداثة الأوروبية ، ما هي إلا أدوات منهجية لنا نحن أنتجها علماء العرب والمسلمين في بلدان الشرق ثم أخذت طريقها إلي الغرب الأوروبي !

ومع ذلك نحن نستخدمها في تطبيقات (الملاحظة) .. (والمشاهدات) .. (والتجربة) تابعين في ذلك السير وفق أعراف وتقاليد وإجراءات لم نحاول تأصيلها والبحث عن مرجعياتها الأولية . مكتفين _ فقط _ بأنها أدوات منهجية ومطروقة ومسلوكة الاستخدام !! . وهو ما يفقدنا الكثير ونحن بصدد تناولنا للتكامل المعرفي (٦) حيث تقتصر الجهود على البحوث والدراسات الأكاديمية والمهنية ، في الوقت الذي تراجعت فيه روح الاهتمام في البحث بشمولية وتكامل التفكير والسلوك .

تمكين الوعي

تلك حالة مجتمعية ومعرفية تحتاج إلي مفهوم جديد في التعامل المنهجي في البحث العلمي والمعرفي ، نظراً لما أصاب الأمتين العربية والإسلامية من اختلالات منهجية في الاستخدام والتطبيق ، تجسد هذا الاختلال في فقدان رؤيتنا الصحيحة للعالم، وفي تقديرنا للأشياء بحسب أحجامها الحقيقة ، فما هو جزئي يقدر على أنه كلي كبير ، وما هو تابع يقدم علي أنه أولوية !! وهو خلل أفقد الإنسان العربي والمصري القدرة على فهم مبادئ الواقعية والسببية والشمولية ... فكان عائقاً أمام الانطلاق الحضاري ، نجم عنه قطيعة معرفية بين الفكر والواقع في التعامل اليومي ، فزاد استغراقنا في اتجاه نفسي (سيكولوجي) أدي بنا في بعض الأحيان إلي الرفض لبعض وقائع الحياة دون اعتبار لمراعاة التفاصيل والمعطيات بشأنها ، وتناسينا _ عن عمد _ بط النتائج

بالأسباب ، فتخلينا عن الأخذ بالأسباب وتعاملنا معها باتكالية ، وتهرب من المسئولية وعدم اكتراث بالنتائج طالما تفسرنا لها أنها من عند الله !!؟ فتعمق الخلل في معرفة الحقائق ، بل وزاد العمل ضد مقتضياتها .. فنحن شعوب تؤمن بأن النظافة شعبة من شُعب الإيمان ومع ذلك نرى " التلوث " بكل أشكاله ولا نبالي حتى وإن سبب لنا أمراضاً عضوية قاتلة !! وعندئذ تتجه الحكومات المصرية والعربية لمعالجة المرض دون الاهتمام باستئصال الأسباب المسببة له ، وكأن البحث في الجذور والأسباب أمر شاق علينا . فجميعنا يعرف أن " ابن الهيثم " عالماً من علماء المسلمين ، لكننا لم نعرف انجازاته إلا بعد أن أخبرنا بها علماء الغرب بأن له أكثر من مائتي مؤلف وصاحب صياغة دقيقة للمنهج العلمي التجريبي القائم على المشاهدة والملاحظات والتجريب والبرهان . وما ينطبق على ابن الهيثم ينطبق على عبد الرحمن ابن خلدون وغيرهما ، حيث يمثل هؤلاء العلماء الأوائل مدارس فكرية اتسمت بالتكامل فيما بينها ، معتمدة على العقل والحس مع بعض التفاوت في درجة التركيز على المصادر والأدوات ، فالعالم الطبيعي لديهم هو عالم الأشياء المادية في الكون ،أما العالم الاجتماعي فهو عالم البشر من أفراد وأسر وجماعات وشعوب وقبائل وثقافات وعالم النفس الإنسانية روحاً وعقلاً وفكراً وسلوكاً ، خفياً ومعلوماً ، وما بها من مشاعر معلنة ودفينة للخير والشر .

يتضح مما سبق أن البحث في تكاملية المعرفة ليس بالأمر البسيط أو الهين ، وإنما يحتاج إلي أطر منهجية متكاملة تتصف بالشمول والاشتقاق لكثير من المبادئ الفرعية لكل قيمة من القيم ، ولكل قضية فرعية من القضايا العامة تؤسس على التعمق في الفهم والتمكن بوعي عند النقل والتداول والاستنباط من تراكمات الماضي المعرفية واستلهام رؤى الحاضر واستشراف آفاق المستقبل .

الشخصية والثقافة .. وحدة في التكامل المتبادل

تعددت المفاهيم حول الثقافة ولكن ما يعنينا هو " أن الثقافة هي إبداع وإنتاج كل ما من شأنه أن يحل المشكلات وسد الاحتياجات التي تواجه الإنسان في حياته " .

وبناءً على هذا التعريف تتحدد مركزية العقل المنتج .. و ... لا مركزية العقل المستهلك !! .

فعبقرية الإنسان تقوم على ثقافته (٧) التي هي من صنعه ، تلك الثقافة التي ابتكرها الإنسان مستخدماً عقله للوصول إلي حياة أفضل ، هي في بدايتها حالة صراع العقل الإنساني ضد أو مع الطبيعة ومحاولة التحكم في الظروف المحيطة . وهنا تصبح "" الحاجة أم الاختراع "" . فتصبح الثقافة أكثر التصاقاً بفعل بأفعال الإنسان وممارساته السلوكية النابعة من تنوع الثقافات وتفرعها ، فهي في عموميتها تصبح كشجرة الحضارة بفروعها وتشعباتها في صور من الثقافات الفرعية ، وهذا ما تذخر به مصر عبر التاريخ والعصور ، فالثقافة منتج مركزية العقل ، هي من تتأثر بها الشخصية القومية في تنميطها ، وتشكلها ، فحيوية الشخصية من حيوية الثقافة ... وحيوية الثقافة من حيوية الشخصية الفاعلة الإيجابية ، فالثقافة متغيرة وغير جامدة أو متصلبة عند حد معين .

ولهذا لابد أن تكون الشخصية القومية **National Character** مسايرة لهذا التطور والتغير الثقافي بما تضيفه الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم وأنماط سلوكية ، أو استبعاد أدوات قديمة وحذف بعض قيم وأساليب وأفكار وممارسات سلوكية لم تعد مقبولة ولم تتفق وظروف الحياة الجديدة . وهنا يصبح الواقع مرهونا بمنطق الأداء داخل الثقافة ككل مع نضال واحتفاظ بعض الثقافات الفرعية ببعض خصائصها وسماتها لا سيما تلك التي تبتعد مكانياً ووجدانياً عن مركز التأثير لمركزية العقل ومبادئ الثقافة العامة ، هنا تتفاوت المجتمعات في درجة تغيرها الثقافي وفي طبيعة هذا التغير وسرعته ونتائجه والأسباب التي أدت إلي حدوثه . وهو ما وسمه ووصفه رائدا علم الاجتماع الأمريكي أوجبرن ونيميكوف **Ogbern & Nimikof** بأنه تغير متلازم في الثقافة والشخصية من خلال الممارسات والأفعال التي تجمع بين التنوع والانتقال في ضوء عوامل هامة ورئيسية هي (الوراثة والبيئة والمجتمع والثقافة) مع تركيزهما على أن الثقافة هي اللاعب الرئيس فوق مسرح التغير .

فديناميات تغير المجتمع والثقافة هي نتيجة للتوترات التي تحدث بين السلوك المعرفي العقلي والعناصر الدخيلة عن الأداء العام والتي تتصارع معه . وبالنظر إلي الشخصية المصرية القومية نجد أنها تعرضت لتحولات عنيفة ومفاجئة خلال ما يقرب من نصف قرن من الزمان مليئة بالتحولات في مستوى القيم وطبع العلاقات الإنسانية _ بعض الشيئ _ بقدر من التوتر يصاحبه عدم الاستقرار النفسي والاجتماعي وهي مرحلة رغم قصرها وحداثتها لكنها تشعرنا بإحساسنا ومعاناتنا بالتشوه من عقدة تنشئة الماضي وتجعلنا نتطلع ونحلم بإقامة وبناء علاقات إنسانية يحيطها العيش الكريم ، والحرية ، والعدل الاجتماعي . وهو ليس بالأمر اليسير الذي سيتحقق في القريب العاجل ، لأننا ما زلنا أمام المهمة الرئيسية والأولى في علاقة الإنسان بواقعه وهي سعي الإنسان نحو التحرر من قيود الماضي والحاضر ، وإن لم تكن جميعها في وقت واحد لكنها استحقاقات إنسانية مطلوبة وضرورية .

مركزية العقل وضوابط حرية الفكر

قد يتصور البعض أن الحديث عن مضمون الحرية لمركزية العقل معناه تحرر العقل من كافة القيود والضوابط المجتمعية التي هي في الأساس تظل عاملاً هاماً في بناء مقومات الشخصية القومية ، إلا أن الواقع في عمل العقل هو غير ذلك ، وإلا تحول العقل بكامل نشاطه إلي نشاط مادي جامد ليس إلا !! وصار العقل آلة ميكانيكية ينطبق عليه ما ينطبق على ماديات البيئة الطبيعية ، فالحديث يدور عن " عقل " متفاعل إنسانياً ولا يدور الحديث عن شئ مادي بحت هو " المخ " بمفهومه البيولوجي .

هنا يمكن القول أن نشاط العقل مرهون بمدى توائمه وتوافقه مع المكونات الرئيسية للبناء الاجتماعي والثقافي والروحانيات الدينية لما هو (مقدس) وهي في مجملها مصادر طاقة وعوامل دفع لنشاط الإنسان للرجال والنساء على السواء من أجل التطلع إلي بناء مجتمع جديد يكرس الناس حياتهم من أجله . وهكذا تكون ضوابط العلاقة القوية بين عمل العقل وبين بناء الشخصية القومية في ظل بنية اجتماعية وثقافية متماسكة ، وكيان ديني مقدس محفز للإنسان ونشاطه ، فلا توجد حضارة عبر العصور

سواء في الماضي أو في الحاضر أو حتى في المستقبل وقد بُنيت دون أن يكون لها إطار ديني (مقدس) فالنوع الإنساني بحاجة إلي إطار للتوجه نحوه (٨) بحاجة إلي موضوع يكرس من أجله حياته ، لكي يستطيع مواصلة الحياة ، في حاجة إلي ما يسمى بالمشروع الإنساني .

تلك هي رحلة الإنسان مع الدين (المقدس) منذ أن كان الدين (طوطمياً) يتصف بصفات اللامعقول أو الصبيانية ، إلي أن وصل الدين إلي مرحلة المنطقية أو العقلانية فأدرك الإنسان الدين العلوي (الدين السماوي) أي دين أو علم الله على الأرض (٩) الدين الذي وجه الإنسان نحو العلم بحدود الله والإنسان وكون الوجود .. فقال تعالى " علم الإنسان ما لم يعلم " صدق الله العظيم (الآية رقم ٥ سورة العلق) فأصبح الإنسان وصار مرهوناً – في حرية فردية تامة – بتنفيذ بنود عقد الاتفاق بين ما هو سماوي (مقدس) وبين ما هو أرضي (دنيوي) ذلك هو " مشروع " الإنسان الذي يسعى إلي تحقيق بنوده والسعي والعمل على نجاحه مستعيناً في ذلك (بالعقل) خير هادياً في صبحه والمساء .. كما يقول أبو العلاء المعري في حق العقل :

يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الملة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقل هادياً في صبحه والمساء

تلك هي رسالة الإنسان ومشروعه في الحياة ، تتركز على تنمية مواهب وقدرات العقل من مطلق الحفاظ على أمانة الله في الأرض والحفاظ على استمرارية أدائها ، حتى يؤدي العقل الجمعي (المجتمعي) رسالته في توائم بين الحق والواجب ، بين الجبر والاختيار السلوكي .

مركزية العقل وقيادة الثورات الكبرى

حين نشر جوناثان إسرائيل **Jonathan Israel** أستاذ فلسفة التاريخ بجامعة برنستون كتابه في عام ٢٠٠١ م بعنوان " التنوير الراديكالي – بحث في الفلسفة وصناعة الحداثة " (١٠) ركز على دور العقل في التعامل مع القضايا الكبرى وصياغتها ،

والمفاهيم الرئيسية ، وأشار إلي أن الشخص الراديكالي Radical هو من يستخدم العقل في الحياة والبحث في عمق وجذور المسائل والقضايا ، من أجل فهمها فهماً عميقاً ، وتحريك ما هو ساكن وراكد بشأنها .

تلك هي حركة العقل راديكالياً وجدلياً حين ضاق زرعاً بمن يوصفون بأنهم ملاك الحقيقة المطلقة للحكم الديني والدنيوي في أوروبا في العصور الوسطى من رجال الدين والكهنة والإقطاع والطبقة البرجوازية . فجاء العقل الغربي بالنهضة ، أو قل عصر النهضة ، أو قل عصر التنوير (١٦٥٠ – ١٧٥٠ م) فهي الفترة التي دعا فيها الفلاسفة إلي التحرر من تراث الماضي تمهيداً لتأسيس التنوير الراديكالي .

فجاءت أفكار التنوير الراديكالي علي يد كل من جون لوك John Loke وإسحاق نيوتن Eshaq Neutin انجلترا واسبينوزا Espinoza في هولندا ، وفي فرنسا كانت أراء كل من مونتسكيو Montisque وجان جاك روسو Rosso وديكارت Decarte وغيرهم .. وفي المانيا الفيلسوف المعروف إيمانويل كانط Kant .. وأيما كان الأمر فإن هؤلاء الفلاسفة العقلانيون المبدعون تدارسوا حول مفهوم (الله) وحريته المطلقة في أن يخلق ما يشاء ، واقترابهم من مفهوم المجتمع باعتباره نظاماً اجتماعياً يستند في أصله إلي حالة تضامنية يطلق عليها عقد اجتماعي Social Contract معتمد في بنوده من جماعة اجتماعية بشرية لتأسيس نظام أو نظم وقواعد تكون من " صنع العقل " وليس من صنع سلطة إلهية . ومن ثم تكون نظرية الحق الإلهي للحاكم هي نظرية زائفة .. فهي اختراع لاهوتي يصور الحاكم وكأنه يحيا في عالم مجاوز لحدود الطبيعة .

وهكذا قاد العقل الثورات الكبرى في عالم الحداثة الراديكالية الغربية في كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، حيث تم إزاحة كل ماله صلة بمصطلح " ما فوق الطبيعة Super Organic " من المسرح السياسي والحياة الاجتماعية ، وتقديم النظم والأسس الأخلاقية المتفق عليها ضمن بنود العقد الاجتماعي ، حتى أنه قيل بأن الكنيسة ذاتها قد خرجت من صلب النظام الاجتماعي .

مركزية العقل المصري " من حالة الالتباس إلي حالة التكامل

الشخصية السوية المتكاملة هي نتاج لعقل مركزي مبدع ، فالإبداع التربوي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي وفي شموله للإبداع الحضاري لا يتم إلا بالعودة إلي البديهيات ، ومن بديهيات أداء ووظائف العقل أنه " حُر " أو هكذا ينبغي أن يكون ، فالعقل التابع لا يبدع ، يقلد غيره ، وعليه فهو يستهلك دون أن ينتج ، فإذا كانت أفكارنا منقولة عن الآخرين فنحن لسنا في حالة إنتاج " معرفي " بل نحن في حالة مزرية من الاستهلاك المعرفي في مجالات العلوم والفلسفة والسياسة والقانون ، بل وفي رؤيتنا لفلسفة التاريخ كما يراه الآخرون وليس نحن ، فماذا ننتظر ؟ وإلي متى ؟

وقد مرت مركزية العقل المصري عبر حقب ومراحل زمنية كبرى في تاريخها – نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر – مراحل ثلاث .. ما بين الحقب الطويلة العميقة زمنياً ، ومابين الفترة القصيرة ذات العائد والمردود السريع كما (الطفرة الزمنية) باستعارتنا لها من محتويات السجل الوراثي البيولوجي ... وتلك المراحل الثلاث هي :

الأولى : مرحلة مركزية العقل المصري في مصر القديمة حيث كان العقل (حُراً) في إبداعاته وإنتاجه الحضاري .. فجاءت فلسفة مصر القديمة متأملة .. راسخة .. بانية بعقول رجالها ونسائها وأبنائها لأول وأعظم حضارة إنسانية في التاريخ تجسد إنتاج العقل الجمعي فيها بإبداع في الفلسفة والدين الوضعي والطب والهندسة والقانون والعدل ، فصارت وما تزال محل إعجاب العالم ، فالمصريون هم أصحاب الاستحقاق الأول (١١) في الرؤى نحو المقدس ، وهم أول من فكروا (دينياً) في (الإله الأوحد) الذي يندرج تحته كل ما هو فرعي من الحديث في .. الشرك والإيمان ، والحق والصدق ، والثواب والعقاب ، وفي الآلهة الثانوية المساعدة للإله الأعظم ، وفي القوى ذات الخوارق العليا ... وإن كان الغرض من وراء ذلك رغم تعدد روافده ومسالكه وانتماءات عقائده وتفكيره هو التوصل إلي " آلهة " التحكم في المصير المجهول للإنسان ، حتى يتمكن الإنسان من حل رموز (لغز الموت) ويكشف عن عمل الآلهة في التقارب الحميم بينها وبين البشر .

تلك مركزية عقل جاهد في صبر المحب للحياة والموت ، وبحرية لا حدود لها في أن يشيد له وطناً أرضياً يسعى من خلال تدبره في الوصول إلي الكون وآفاقه الفسيحة، وإلي التقرب إلي خالقه وخالق الكون ، فكان ولابد وأن يرتاد في آفاق معرفية فسيحة في الذات والنفس والوجود والعدم ، فتجسدت حضارته عبر التاريخ في علوم الدين والعقيدة والفلك والتشريع والقانون والطب والهندسة والرعاية الاجتماعية ، والزرع والنماء ، والحصاد والوفاء للنيل العظيم ... الخ . فترك لنا العقل المصري القديم ورائه كماً هائلاً من الرصيد المعرفي تمثل في الوثائق المادية بشتى أنواعها من نحت وتصوير ورسوم جدارية ومجسمات وتماثيل وأوراق بردية تحمل بين صفحاتها ثقافة متنوعة الجوانب والروافد المادية والمعنوية ، وما زال الباحثون ينهلون منها لعناصر التكامل المعرفي لمركزية العقل المبدع في مصر الفرعونية فصارت قبلة حضارية ما زال حجاج المعارف الثقافية يفدون إليها من كل بقاع العالم ، فهي حضارة لن تموت ، وفكر له من البريق ما يجعله مزدهراً عبر العصور . ذلك هو التكامل المعرفي في شخصية قومية مكتملة البنيان في أسسها الفكرية بعقل جمعي متوائم .

الثانية : وهي مرحلة السيطرة على مركزية العقل المصري من جانب كافة القوى الخارجية بدءً بميول الإغريق وحبهم في السيطرة على العقل المصري ، ومن بعدهم الفُرس ، والرومان إلي أن وصلنا إلي القوى الاستعمارية الحديثة من فرنسية وبريطانية ، وحتى اليوم في ن يرتدي ثوب الزييف والضلال تحت مداخل الحرية والديموقراطية وهم الأمريكان الذين لم ولن يحجز لهم التاريخ الإنساني مكاناً حضارياً بالمفهوم العميق في مركزية العقل حتى الآن ، نظراً لحداثة قيام دولتهم من جهة ، ونظراً لمراهقتهم في الممارسة السياسية المدعومة من وجهة نظرهم بالقوة العسكرية من جهة أخرى . تلك القوى الاستعمارية التي تجاهلت وما زالت تتجاهل قيمة المنتج للعقل الجمعي المصري ، حيث دأب الاستعمار الأوروبي على اعتبار مفكري اليونان القدامى هم وحدهم أ ول من بدأوا الفلسفة في العالم متجاهلين فلسفة مصر القديمة ، بل وصل الأمر بالأوروبيين في صراعهم بين " مركزية العقل الأوروبي " و " مركزية العقل المصري القديم " إلي القول بأنه إذا كانت الديانة المصرية القديمة هي الباب الملكي لسطوة العقل المصري وإبداعاته

، فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد حشو أو خليط من كلام وأحاديث يفتقر إلي مضمون محدد ، أو قل أنه كم هائل من الخرافات !!؟ . وينسى الأوروبيون عراقة مصر الراسخة ، التي جعلتها بمثابة المثال الحضاري الثابت المستقر والمرجع الأصيل الذي لا تتوقف عنده ألغاز التفسير مهما طال بها الزمن فإنها تزداد بريقاً ولمعاناً ورسوخاً ، والأهم أنها نبع للعطاء المتدفق لا للمصريين وحدهم ، بل ولشعوب الكون الأرضي بأسره .

ومن الواضح مما سبق أن القوى الاستعمارية أرادت أن تضع " العقل المصري " ومركزيته تحت سيطرتها ، مستعينة في تنفيذ ذلك بحكومات داخلية هزيلة ، خائفة ، تابعة لها ، متخذة من التربية والتعليم (مجالاً لبناء العقل وتشكيله !!) منذ الطفولة المبكرة للانقضاض على العقل والسيطرة عليه بقانون (الطاعة العمياء) للسلطة المطلقة الأرضية والمزعومة سماوياً من قبل البشر !! ولم لا إذا كان سجن مركزية العقل وجعله بعيداً عن نسائم الحرية مفيداً وناشطاً في زيادة " هبله " و " عبطه " و " بلاهته " !! فلا بد و أن يظل في حالته التي لابد وأن تحافظ عليها القوى الخارجية مدعومة بمساندة قوى داخلية ليظل العقل رهينة في قضية محكوم عليه فيها بالحبس أو الاعتقال دون استئناف منه أو نقض للحالة التي تمت قولبته عليها .

ولمَ لا تظل مركزية العقل المصري بدون حرية ، فالحرية – في نظر الغربيين – هي من نصيب العقل الأوروبي الغربي ومركزيته دون سواه ، والتي بها صار متحرراً – بفضل الثورات الشعبية الكبرى – منذ التمرد والخروج عن سطوة السلطتين الأرضية والسماوية ، وأصبحت مركزية العقل الأوروبي قادرة على الإبداع بعد التحرر من سجن الدولة الدينية .

أما مركزية العقل المصري وعلى مدى عقود طويلة بل وعلى مدى مئات السنين ورغم ثوراته المتكررة لم ينجح في التحرر من هذا السجن ، فصار مستهلكاً – لا منتجاً – للنظريات العلمية والفنية وأدواتها ، تلك النظريات التي هي في الأساس نتاج عقل غربي ! وهو ما خلق أمام مركزية العقل المصري الحديث حالة فريدة من نوعها في الالتباس والحيرة ، جعلته يميل إلي النقل والسرد بدلاً من الاجتهاد والإبداع والابتكار ، وقد صار ذلك على كافة المستويات الاجتماعية والثقافية (١٢) وليس أدل على ذلك

من حالة التناقض التي عاشها المصريون أبان فترة الحكم الاستعماري الأوروبي (الفرنسي والإنجليزي) فنحن كمصريين قد لا يحب بعضنا الأوروبيين ، ولكن في نفس الوقت نحن نحب أسلوبهم في الحياة اليومية ، نحن نكره عنفهم مع الغير ، وفي نفس الوقت نجدهم أرق أجناس الأرض في تعاملهم برفق ــ حتى ــ مع الحيوان !! نحن لا نحب ابتذال نسائهم ، ولكننا نتودد إليهن إذا ما واتت الفرصة تلو الفرصة إلينا !! نحن نكره مستحدثات علمانيتهم ، ونكون أسرع الناس في الرغبة في اقتنائها واستخدامها !!

تلك الحالة الملتبسة في مركزية العقل المصري – بل والعربي – ومقومات بنائه الحديث جعلتنا نقف في حيرة أمام تناقضات لا حصر لها – وإن كانت فردية – في الأعم لكن لها من التأثير والوضوح السلوكي ما يجعلنا نشير إلي بعض من أمثلتها فيما يلي :

- هذا زعيم سياسي وحاكم يمشي مختالاً ، ولكنه في ذات الوقت لا يملك قراراً حراً مصيرياً بمفرده ... كما كان الحال – وقيل – بأن الحل في قرار الحرب والسلام وقضية فلسطين في الشرق الأوسط تملكه الولايات المتحدة الأمريكية بنسبة ٩٩ % !! هكذا قيل وتم الترويج له !! مثل هذا القول ما وقعه على القريبين ممن يعملون حول الحاكم ومعه !! وما وقعه على المواطن المصري أو العربي البسيط !! ؟

- أستاذ جامعي من المفترض بل ومن الواجب بأن يكون حراً موضوعياً لا لسبب إلا لأنه " قاضي " و " عادل " في الدرجة الأولى لمهام عمله ، نراه يؤمن بأفكار الاشتراكية والماركسية اللينينية ، ويشخص مرضاه في ذات الوقت بأدوات وسماعة طبية صناعة أمريكية !! ومتزوج من أربع نساء تبعاً لشرع الله ويعمل مخلصاتي مصالح لمن يرغب ، حتى وإن عمل سمساراً للمناصب القيادية في الجهاز الإداري للدولة وغيره ، بحثاً عن أهل الثقة لا أهل الخبرة !!

- رئيس حزب سياسي شيوعي الاتجاه ، رأسمالي الهوى ، يدعم مبادئ الاقتصاد الحر لينفي ديكتاتورية الدولة ، وأنها لا تنتهك قواعد الديموقراطية .

هذا العرض السابق يؤكد على أن الإنسان المستقل والعقل الحر (غير التابع لمذهب أو نظرية أو خاضع لقوة أقوى) لا يقع في هذه الإذدواجية والتناقض . وإنما ما نشاهده اليوم هو استمرار حالة السيطرة الجبرية على مركزية العقل سواء على مصر أو غيرها لكثير من بلدان العالم (١٣) حتى وإن كانت السيطرة غير عسكرية إلا أنها ازدادت إحكاماً بفضل التحكم في وسائل النظم الرأسمالية و الاقتصاد الحر مدعومة بخدعة الحرية ونشر الديموقراطية والإنتخابات النزيهة !! لشغل مركزية العقل لشعوب العالم بهيافات محسوبة ومدروسة في قاموس التطبيق السياسي – والتي لا تعدو كونها مجال من مجالات إدارة الدولة السياسية _ في مقابل الإهمال المتعمد لمسالك ومشروعات تنمية الاقتصاد بروافده المختلفة ، والنهوض بالوعي الاجتماعي والثقافي والحرص على استقلاليته والحفاظ على هويته الذاتية ، فضلاً عن العناية بالعلم والعلماء وكافة الأنشطة التي من شانها أن تزيد من معدلات التنمية الشاملة ، ولكن في حقيقة الأمر أن هذا لم يحدث .. ويبدو أنه لن يحدث !! طالما أن هناك قوى خارجية – وبعاونة قوى داخلية – لا ترغب في تحرير عقولها من صنوف الاستبداد والاحتكار والسيطرة والتخلف ، طالما أن بقاء تلك الأنظمة في كراسي الحكم السياسي هو المقابل المدفوع نظير فاتورة الأداء الإمعي !! . وأظن أن العبارة الشهيرة إعلامياً وأدركتها كل شعوب الأرض وأدركت مغزاها حين صدرت من (الباب العالي !!) في واشنطن في فبراير ٢٠١١ م موجهة إلي رئيس مصر (حسني مبارك) ارحل Now تعني (الآن) وليس غداً !!؟ .. فكم كان هذا النظام هزيلاً سياسياً ، كما كان هزيلاً في كل شئ !! إلا أنه من نعم الله على هذا الشعب الطيب " الذي هو في رباط مع الله إلي يوم القيامة " لم يقع ذات يوم فريسة لأية قوى استعمارية مهما كانت عبر العصور ... فقوته وقوة إرادته دائماً هي في كمون أقواله وأفعاله ولم يكن هذا الشعب في يوم من الأيام مسايراً لقائد مستبد أو ظالم جائر ، أو جاحد لشعبه وإنما لديه الصبر في إدراك حالة الواقع ثم التعامل معها في التوقيت الذي يناسب الحدث فمركزية العقل للإنسان المصري هي خير شاهد على تعامله مع الثورات الشعبية الكبرى التي مرت عليه .

الثالثة : تلك التي تجسدت أحداثها في ثورة الخامس والعشرين من يناير لعام ٢٠١١م وأظهرت للساسة والمحللين أحداثاً وصوراً ومشاهدَ يعجز العقل عن رصدها في فترة لم تتجاوز الثلاثة أعوام فظهرت مفرداتها علي سبيل المثال – لا الحصر – في ما يلي :

توريث الحكم ، النظام البائد ، مبارك وأعوانه ، الداخلية بلطجية ، الفساد الديكتاتورية والقمع ، كلنا خالد سعيد ، وائل غنيم ، (كفاية) ، شباب ٦ أبريل ٩ مارس ، النشطاء السياسيون ، الثوار ، ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ، جمعة الغضب ٢٨ يناير ٢٠١١م ، ميدان التحرير رمز الاحتشاد والثورة ، الاعتصام حتى النصر التنحي ، إعلان مبادئ الثورة (عيش – حرية – عدالة اجتماعية) الإخوان المسلمون وقصة كفاح فاشل!! ثورات الربيع العربي ، ظهور القوى السياسية الجمعية الوطنية للتغيير (البرادعي إنفو) حزب الحرية والعدالة ، حزب النور السلفي المجلس العسكري ، الليبراليون ، الإسلاميون ، الجهاديون التائبون ، التعديلات الدستورية ، المظاهرات ، المليونيات العنف السياسي ، العنف المجتمعي ، الساحة السياسية ، تشكيل القوى ، الانتخابات البرلمانية ، اختفاء لوجو الإسلام هو الحل !!

الانتخابات الرئاسية ، المحكمة الدستورية ، التوافق السياسي ، المرشد العام للإخوان مكتب الإرشاد ، الأمريكان ، رموز النظام السابق برئيسه في السجن ، الترشح للرئاسة التصريحات ، الصدق ، الكذب !! ، يسقط .. يسقط حكم العسكر !! ؟ التظاهر أمام وزارة الداخلية ، التظاهر أمام مقر مجلس الوزراء ، التظاهر أمام وزارة الدفاع ، حرق المجمع العلمي بالقاهرة ، شهداء الثورة ، حق الشهداء ، النائب العام ، دستور ٢٠١٢ م ، محمد مرسي رئيساً لمصر ، برنامج الإصلاح في ١٠٠ يوم (حل مشكلتي القمامة وأنبوبة البوتاجاز !!؟) ، المطالب الفئوية ، عودة التظاهر من جديد إنفراد الإخوان بالحكم !! ، أخونة مؤسسات الدولة ، الثورة اتسرقت !! ؟ ، الإعلان الدستوري المكمل (المكبل !) الديكتاتور الإسلامي ، الحالة الأمنية الملتبسة !! التخابر ؟؟ ، الدعوات لانتخابات رئاسية مبكرة ، ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ م ، مرسي قيد الإقامة الجبرية، القوى السياسية (الأحزاب السياسية) والوطنية (الأزهر والكنيسة والحركات

والقوى الثورية الشبابية) والشرطة والجيش وخارطة الطريق بين مؤيد يقبل ، وبين معارض يستخدم العنف سلاحاً !! ، العقل الجمعي يستيقظ ، إقرار دستور ٢٠١٣ م ، التوافق الشعبي ، الاحتفال بالذكرى الثالثة لثورة ٢٥ يناير في مشهد غير مسبوق ؟ .... الخ .

كل هذا وغيره جعل الشخصية المصرية الوسطية – لا صاحبة التطرف السياسي ولا صاحبة التطرف الديني – تنظر إلي تحليل الواقع المحيط كأحد وأهم عناصر تكوينها برؤية ممزوجة بين القبول والرفض بين التأييد وعدم التأييد لما يحدث بين الطمأنينة لما يحدث والاندهاش !! فتجسدت أمام العقل الجمعي بفعل نتاج المرحلة بعض القضايا الهامة في صورة تساؤلات – لا نتائج – نذكر منها :

- **هل كان النظام السياسي السابق لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ م فاسداً حقاً ؟**
- **هل تأخرت انطلاقة ساعة التنمية الشاملة في مصر لما قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ م حقاً ؟**
- **هل كانت مؤسسات الدولة – بما فيها المؤسسات الراعية للأمن – لا تقوم بدورها كما ينبغي حقاً ؟**
- **ما الجديد الذي قدمته القوى السياسية القديمة والناشئة بعد الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ م ؟**
- **ما هو حجم الدور الحقيقي للقوى الشبابية في مصر ؟**
- **ماذا قدم الإخوان المسلمون لمصر ؟**
- **هل كان أداء المجلس العسكري عقب الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ م غير مرضي حقاً ؟**
- **هل خروج الجماهير – في ثورة شعبية لا مثيل لها – في ٣٠ يونيو يوسم بالثورة ضد النظام الحاكم حقاً ؟**
- **ماذا ينتظر المصريون من خارطة الطريق للاستحقاقات السياسية المرتقبة ؟**

تلك قضايا عامة – في صورة تساؤلات – تعبر عما يعن به العقل الجمعي المصري تجاه مستقبل حياته ، ويعدها من مستلزمات بناء شخصيته وشخصية أبنائه من بعده ، يستشعر فيها ومن خلالها ، أنه يتقدم نحو التوازن مع النفس ، والتحرر من توجهات سلطوية داخلية وخارجية ، نزوع نحو المستقبل يملؤه الأمل بمستقبل أكثر إشراقاً ، زاد من وعي الإنسان المصري – رغم قصر المدة التي تحركت بها الأحداث – بالإلمام بقوى الشر والدمار ومن لديه وطنية حرة تجاه مصر ، ومن ليس لديه الوطنية أصلاً !!؟ ففاقد الشيئ لا يعطيه .

وأدرك الإنسان المصري المعاصر بعقله الجمعي ، أن لمصر تاريخاً وحضارة لابد وأن يستمر في تسطير حروفها عبر العصور بالعمل والإنتاج لا بالأقوال والمنتديات ! حتى تعود مصر كما كانت إلي مكانها الطبيعي (أم الدنيا) وكما كانت حقاً من قبل فالحضارة والمجتمع شيئان متلازمان ، وهما ظاهرتان مختلفتان يتصلان ببعضهما عن طريق الأشخاص الذين يكونون المجتمع ويفصح سلوكهم وأدائهم عن نوع حضارتهم (١٤) فانزواء العقل المصري ونزوحه نحو الاستخدام لا الإنتاج جعله يتغيب عن تسجيل تاريخه الحضاري لبعض الوقت فكتابة تاريخ الشعوب والدول والمجتمعات لا يتم في الغرف أو الصالات المغلقة المتوفر بها الورق وأدوات الكتابة ، وإنما كتابة التاريخ الحضاري للمجتمع يدون في سجله الزمني عبر العصور بمنتج راقي الجودة في شتى ميادين الحياة ، فهل ينتظر الإنسان المصري – من نفسه – حقاً أن مستقبله وبنائه لا بد وأن يكون رهناً بعمل يده لا بيد غيره ؟ فالإنسان المصري الذي يشاهد السفن العملاقة التي تمر بقناة السويس والتي حُفرت بأيدي أجداده نجده اليوم ينظر في بلاهة المستغرب !! من كبر حجم السفن العملاقة العابرة ، وينسى أن أجداده العظام الشوامخ هم من أعدوا بنية القناة في بنيتها الأساسية لعبور تلك السفن ، حفروها حين كانت مركزية العقل المصري تتمتع بمحورها المستقل ، حين أرسل عظماء الفراعنة في عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة (٢٦١٥ – ٢٥٠٠ ق.م) أسطولاً بحرياً ضخماً مكوناً من أربعين سفينة عملاقة (١٥) لجلب أخشاب الأرز من لبنان للوفاء احتياجات الصناعات المصرية كما أثبت الفحص الميكروسكوبي لعينات من أنواع الأخشاب التي صنع منها مركب خوفو

وتم تحليلها في معمل أبحاث منتجات الغابات في إنجلترا بمعرفة الدكتور E.w.g.Fillips أن إحدى هذه العينات تدل على أنها من خشب أشجار معينة اسمها العلمي Mangifera Indica وهي فصيلة من الأشجار لا تنبت إلا في شبه القارة الهندية ، الأمر الذي يثير الدهشة والتساؤل عما إذا كانت هناك علاقات تجارية بين مصر والهند القديمة في ذلك الزمن المبكر من التاريخ ؟

وما يعلمه الدارسون لتاريخ مصر القديمة (الفرعونية) والذي تبلورت المعرفة حوله حين بدأ مع الفترة من ٣٢٠٠– ٣٣٢ ق . م حين فتح الاسكندر الأكبر مصر ، وبدأ بذلك حقبة أخرى من حقب التاريخ المصري ، فمصر الفرعونية – حين كانت مركزية عقلها نابعة من ذاتها الوطنية – استمرت طوال تلك الآلاف الثلاث من السنين في صلاتها بمعظم أطراف العالم القديم ، ورحل المصريون القدماء بأساطيلهم البحرية إلي أقاصي الأرض لتحقيق أغراضهم الحربية أو السياسية أو التجارية أو الدينية أو الثقافية ... وغيرها .

تلك هي شخصية المصري ، صاحب مركزية العقل الجمعي المصري ، صاحب الدور الريادي الحضاري في مجال " الرحلة والارتحال " يقوم بدوره في بناء وإرساء أسس أعظم حضارة إنسانية في التاريخ تجلت مظاهرها في إنشاء الدولة والحكومة وظهور كيان المجتمع الزراعي بكل خصائصه ، ثم الابتداع في الصناعة والابتكار في الفن ، إلي أن اكتمل بنيانها في عصر بناة الأهرام ، فزاد الإشعاع الحضاري وضوحاً واتسع في مجالات علوم الحساب والهندسة والكيمياء والطب والفلك وفنون العمارة والتصوير والتلوين والنحت مع أقسى واصلب أنواع الحجارة والصخور .

هذا العقل العبقري الذي تميز به المصريون القدماء أدى بإبداعاته الفكرية والعلمية والحضارية إلي حدوث ظاهرة عالمية – آنذاك – تسمى " الإجيبتومانيا " وهو مصطلح علمي معناه الجنون بمصر (١٦) أو الولع الشديد بمعرفة المعلومات عن تاريخ مصر والآثار المصرية وهكذا أصبحت مصر منطقة جذب سياحي للقادرين على الرحلة و الارتحال من سكان الشعوب المتمدينة في العالم القديم . وإلي جانب مركزية العقل

المصري وإبداعاته الذي تميز به الإنسان المصري عبر العصور ، كانت هناك مقومات أساسية ساعدته على بناء حضارته منها :

- الإنسان .... ثم ... الإنسان .
- البيئة بكل ما فيها من مقومات الإبداع .
- التراكم الثقافي في لا في الزراعة فقط وإنما في نشأة المدينة وحالة الاستقرار السكني فوق أرض الوادي الذي يغمره الفيضان في كل عام فضلاً عن الإبداعات في الفنون والبناء والعمارة والفلك والقيم الدينية والأخلاقية ... الخ .

ومرت عصور وعصور على مركزية العقل المصري يكون لحريته فيها إضافات إلي مقومات بناء الحضارة شأن كبير في تقدمه وعظمته ، ولم يخبو نتاج هذا العقل إلا بعد أن فقد مركزيته في التفكير والإبداع والابتكار (١٧) فتدريجياً سار تابعاً لا مبدعاً منذ دخول الإغريق والرومان والفرس والعرب والأوروبيون وهي تلك الحقبة الزمنية التي امتدت منذ عام ٣٣٢ ق . م إلي عام ١٩٥٢ م أي ما يقرب من ٢٢٨٤ عام ومصر ومركزية عقلها الجمعي خارج نطاق حريته خارج نطاق الخدمة في صناعة الفكر والحضارة . فهل يتقدم الإنسان من خلال (خارطة المستقبل) لعام ٢٠١٣ م نحو استحقاقات مستقبلية أكثر تحرراً ، وأكثر إبداعاً ، وأكثر إنتاجاً وأكثر مشاركة في بناء أسس ثقافة العولمة ، هذا هو سؤال المستقبل ؟

الإخوان في المشهد .. والفشل بامتياز

يقول الكاتب البريطاني المخضرم مارك كيرتس **Mark Curtis** في كتابه " العلاقات السرية : التحالف البريطاني مع الإسلام الراديكالي : **Secret Affairs Britain Collusion With Radical Islam**" أن بريطانيا كقوة استعمارية في الشرق كانت تواجه قوتين أساسيتين هما : قوة الحركة القومية و وقوة الحركة الدينية متمثلة في الأخوان المسلمين (١٨) .

ومنذ عام ١٩٤١ م بدأت بريطانيا الاتصال الفعلي بكوادر الأخوان المسلمين طمعاً ن بريطانيا في تقريب الإخوان إليهم على حساب وضد تحالفات الحركات القومية المصرية المعادية للاستعمار . وبعد الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تتعاون مع الإخوان على الرغم من إدراكها لخطورتهم .

ومع قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م في مصر أدركت بريطانيا أن المد القومي سيزداد ومن ثم سوف تزداد الكراهية للوجود الإنجليزي في مصر وفي بعض بلدان الشرق، وأدرك الأخوان الذين كانوا يعلنون العنف ضد الإنجليز علناً ، ويلتقون بهم سراً ، أنه لا فائدة من اتصالهم بالإنجليز ، وهي تلك الاتصالات التي بدأت مع مرشد الجماعة – آنذاك – حسن الهضيبي ومن ثم سارع الأخوان بتأييد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م وقادتها من الضباط الأحرار معتمدين في ذلك على وسيط سابق هو أنور السادات .

وعندما أدرك الأخوان أنه لا مكان لهم في المفاوضات الدائرة بين بريطانيا وعبد الناصر وأن اللقاءات السرية التي كانت تتم بين بريطانيا وبعض قادة الأخوان لم تثمر بأية نتائج ملموسة وفي خضم تلك اللقاءات ما بين السرية والعلنية ، وما أعلنت عنه السفارة البريطانية في القاهرة عن وجود قادة داخل الأخوان لديهم الاستعداد للتعاون مع بلادها ، بادر عبد الناصر في عام ١٩٥٤ م بحل جماعة الأخوان المسلمين ، ثم تعرض عبد الناصر على أثرها لمحاولة اغتيال له في حادث المنصة بالمنشية ، بالإسكندرية ، وكان المدان الأول آنذاك التنظيم السري للإخوان ، فتم القبض على المئات منهم وإعدام ستة منهم في ديسمبر ١٩٥٤ م وهروب العديد منهم للإقامة خارج مصر ، وهكذا انتكست الجماعة ، وانتكس نشاطها .

ومن الواضح في هذا السياق أن بريطانيا كانت تدرك مدى خطورة الأخوان إذا وصلوا إلي كرسي الحكم ، فكانت لا تمانع في استغلالهم لتحقيق أهدافها بالمنطقة ، لكنها لم تكن تدعم وصولهم للحكم . هذا في الوقت الذي بدأت فيه المملكة العربية السعودية في تشجيع ونشر الفكر الوهابي لمنع المد الناصري ، فكانت بريطانيا من الدول المساندة لذلك ، وشجعت بعض قادة الأخوان ليكونوا أعضاء ضمن تأسيس

جامعة العالم الإسلامي ، التي تديرها وتمولها المؤسسة الدينية السعودية ، وركزت نشاطها في نشر الدعوة وبناء المساجد ، بينما كانت بريطانيا تهدف من وراء ذلك استغلال التحالفات الدينية الإسلامية ضد ظهور أعداء محتملين .

من الواضح أن جماعة الأخوان المسلمون ومنذ قيامها في عام ١٩٢٨ م علي يد مؤسسها حسن البنا تلميذ رشيد رضا ، تقوم بدور معطل لتطور الثقافة المصرية والعربية عن مشروعها العقلاني النقدي الذي أسس له وتبناه الأمام محمد عبده منذ بدايات منتصف القرن التاسع عشر وأمتد حتى الربع الأول من القرن العشرين ، حيث قدمت الجماعة التجسيد الحركي السياسي للتيار السلفي الأكثر تشدداً والأكثر نهجاً بالتعاليم التقليدية للإسلام ، ذلك المنهج القائم على النقل والسمع والطاعة ، فكانت الجماعة أول تجسيد سياسي للتيار الإسلامي في الثقافة العربية المعاصرة ، وسرعان ما خرج من تحت عباءته تحت ضغط الواقع وملابسات السياسة تيارات متشددة ، وروافد سلفية جهادية ، وبؤر تطرف حاولت جميعها بناء وعي تاريخي تقليدي مضاد لوعي العقل الجمعي للكتلة المصرية الحديثة ، ورغم قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ م ووصول جماعة الأخوان المسلمين إلي كرسي الحكم ، إلا أن رصيدها من العمل السري تارة ، والمشتت تارة أخرى ، وعدم اكتسابها لخبرات عملية في مجال السياسة فقد فشلت في مهمتها السياسية لقيادة المجتمع المصري ، صاحب الإرث الحضاري العظيم لمركزية العقل في إدارة حركة التطور الفكري والسياسي عبر العصور .

الشخصية المصرية : حالة إنفراد مُحير

تناول العرض في هذه الورقة البحثية مفهوم الشخصية من حيث هو الشخصية القومية أو الطابع القومي **National Character** المبنية على أسس مصرية متكاملة ن القواعد الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية (١٩) لا من حيث مفهوم الشخصية **Personality** كمفهوم فردي يطغى عليه التصورات والتحليلات النفسية . فمفهوم الطرح العلمي والثقافي والمجتمعي لمفهوم الشخصية القومية لشعب من الشعوب يزدهر – عادة – في أوقات الأزمات المجتمعية والسياسية وغيرها ، لاسيما

عندما تكون تلك الأزمات ملامسة لهوية الشخصية في مبادئها وأسس تكوينها . هذا وقد بذل الأنثروبولوجيون الأوائل منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين جهوداً مضنية في تناول الشخصية القومية ، بل وازداد هذا التوجه العلمي بدراسات الشخصية والطابع القومي عندما أهتم الأمريكيون بدراسة أعدائهم أثناء الحرب العالمية الثانية – لاسيما الشخصية اليابانية – بل والأكثر من ذلك ظهور فرع متخصص في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية عُرف بدراسة " الشخصية والثقافة والطابع القومي " من الرواد المؤسسين له على سبيل المثال **Abram Kardiner** والصيغ الثقافية ، كلارك ويسلر **Clark Wesler** ودوائر الثقافة ، وفرانز بواس **Franz Boas** ونشأة وانتشار الثقافة وروث بينديكت **Ruth Benedict** والتنميط الثقافي ، وفرانسيس هسو **Francis Hsu** و فيليب ماير **Philip Mayer** والتكامل الاجتماعي والثقافي من وجهة نظر الأنثروبولوجيا السيكولوجية ، وفيليب بوك **Philip Book** والفرويدية الحديثة وتأثيراتها في بناء الشخصية القومية .

ومن نافلة القول أن بعض نتائج تلك البحوث والدراسات قد جاءت بجوانب إيجابية في معرفة ثقافات الشعوب ، وما يميز طابعها القومي الخاص ، حتى يمكن التعامل معها ، وهي نزعة ربما لا تخلو من النرجسية الأمريكية بعض الشيء ، حين نصبت من نفسها سيد العالم حامي حمى الديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان ، في الوقت الذي تنظر فيه إلي ثقافات وحضارات الشعوب الأخرى بنظرة الاستعلاء ودونية الآخر ، وقد ظهر ذلك جلياً في السنوات القليلة الماضية عندما نشر الكاتب الأمريكي فوكو ياما **Fukuyama** كتابه عن نهاية التاريخ (٢٠) وأشار فيه إلي أن التاريخ الحضاري ربما قد يتوقف عند حدود التطور الأمريكي ولا جديد – من وجهة نظره – لما يمكن إضافته إلي التاريخ البشري فيما بعد !! ؟

والشخصية المصرية باعتبارها شخصية (مُحيره) كان محل اهتمام لدراستها والبحث في تكوين أسسها الحضارية من قبل المستشرقين أو الهواة أو الرحالة الأجانب ، فكتبوا منذ منتصف القرن التاسع عشر عن عادات المصريين ومعتقداتهم ، وركزوا عن أوصاف المصريين وتدينهم وتمسكهم بتراثهم القديم (لحد البلادة والخمول والاستسلام

للأفكار المسيطرة ، رغم تحليهم بالتحمل والصبر واحترام كبار السن وتقديس الأولياء واحترام الموتى وإيمانهم العميق بالقدرية وعدم القدرة على تحمل المسئولية ، والاعتقاد في الخرافات .

ومن الكتابات الوصفية عن الشخصية المصرية ما طرحه إدوارد وليم لين Edward William Lane في كتابه : المصريون المحدثون – عاداتهم وشمائلهم (٢١) وفيه عرض مسهب للعادات والتقاليد وأنماط السلوك للحياة اليومية للمصريين ، وإن كانت لا تخلو في طابعها السردي من وصف يغلب عليه الطابع الرومانسي في الكتابة . ثم توالت الجهود المصرية والبحث في نمط الشخصية المصرية وطابعها القومي ، مع نشأة الجامعات المصرية أواخر الثلاثينات من القرن العشرين وبدء نشاطها في البحث في مجالات العلوم الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية ، فقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة بدراسات هامة حول الطابع القومي للشخصية المصرية ، وهو ما أكده السيد عويس في كتابه عن ملامح المجتمع المصري المعاصر(٢٢) وأشار فيه إلي علاقة المصريين القوية بالعالم غير المنظور للموتى وما يرتبط به من حزن مفرط ، وخلط بين الدين الرسمي والدين الشعبي وبين عبادة الإله وتقديس الأولياء ، وهي تلك الشخصية – كم يقول السيد عويس – التي تتأرجح بين القدرية والتواكلية ، والازدواجية ، وسيطرة التفكير الخرافي . وأيما كان الأمر فإن شخصية الطابع القومي للمصريين قد ارتبطت وتمركزت حول حالة ذهنية يحكمها ويسيطر عليها ما يعرف " بمركزية العقل الجمعي " حين توصف الشخصية في عمومها .

وفي حال النظر إلي الشخصية المصرية في بعدها الإقليمي المحلي ، وفي تنوع مقومات بنائها ، فقد أرتبط بناء الإنسان بالبيئة المحيطة وبالظروف الحياتية والإنتاجية ، وبالسياق الاجتماعي والثقافي (٢٣) الذي عاشه ويعيشه الإنسان المصري ، مستلهماً بقاء وجوده ، واستمرار معاشه في سمتين رئيسيتين هما :

١. الصبر ، حيث كشفت الدراسات الميدانية الحديثة من خلال البحوث ودراسات الماجستير والدكتوراه ، بأن الصبر ليس سمة مطلقة بين المصريين ، فهم

يحملون في أذهانهم مفاهيم مختلفة ، فالصبر موصول بكثرة مع أسلوب الحياة اليومية لدى الفئات الأكثر اتصالاً بالبيئة الطبيعية كالبدو والفلاحين والصيادين فيأخذ لديهم مفهوماً دينياً للاحتماء به عند ملمات الفقر والمرض والعجز والمكروه بشتى أنواعه .

٢. التواكل لأ ؟ التوكل نعم ، فكليهما مفهومان قيمي ، روج لانتشار الأول المستشرقون وهواة الرحلات الإثنوجرافية المهتمين بمعرفة شخصية المصري ، وإن كان الواقع غير ذلك فالمصري " متوكل " على الله ، لا متواكل فسمة التوكل سادت بين المصريين من منطلق أدائهم لأعمال غير مستقرة وغير دائمة ، فضلاً عن اعتماد البعض منهم على ما تجود به البيئة الطبيعية من ثمار للإنتاج المعيشي .

وإلي جانب السمات التي تتسم " بالموقفية " في الشخصية القومية المصرية مثل الصبر والتوكل ، وهي تلك التي ترتبط وتستحضر عند " المصري " بمواقف وأنشطة معينة ، وبسلوكيات حياتية خاصة به . كما يتسم المصري ببعض السمات في شخصيته القومية وفقا لارتباطها بعوامل ومقومات بنائها كتكوين المجتمع وتنوعه الثقافي وتميز بنائه الاجتماعي والثقافي حتى في حالة تتعددية الثقافة بداخله . ومن تلك السمات ما يلي :

١. التحفظ والتحفز : وهي سمات تتفاعل بداخل المصري عندما يقبل على التعامل مع الدوائر التي هي أبعد من دائرة أو دوائر حياته الشخصية ، والمألوف تعامله معها عندئذ يستحضر بداخله علامات الشك والتوجس ، ويعيش موقفاً ثلاثي الأبعاد (التوجس – الفرد – الموقف) يتجلى ذلك في المعاملات الاقتصادية المتوسطة والكبيرة الحجم ، وفي الاختيار للزواج ، وفي تعامله مع الأجهزة الرسمية للدولة والتعامل مع السلطة الأعلى ، وإن كانت هي علاقة لا يحكمها " الاستسلام " بقدر ما يحكمها صفة وخاصية " التباعد " يضاهيها المثل الشعبي القائل " جنة بُعده ولا نار قربه !! " وفي قول آخر " البعد عنه غنيمه ! " أو " لو قربت منه يحرقك ! " تلك علاقة سارت في خطوط متعرجة تارة ، ومتوازية تارة أخرى ، وأهم ما يميزها هو عدم التقارب لدرجة الاندماج ، حتى بعد أن عاش المصري ويعيش عدداً مت الثورات والحالات الثورية التي تميز بها سلوكه منذ فجر التاريخ وحتى الآن . وما زال المصري حتى في ظل تحفظه وتحفزه

يتعامل – بما يستدعيه " الموقف " بغض النظر عن استحضار أسبابه وإجراءاته محتمياً – في نهاية المطاف سواء تكلل عمله وسلوكه بالنجاح أو الفشل بالرؤية الدينية والمعتقد الديني .. ففي النهاية يؤكد المصري من منطلق عمق تدينه .. ربنا عاوز كده .

٢. الإدعاء المعرفي : هي سمة صاحبت وتصاحب الشخصية القومية المصرية منذ وضع محمد علي باشا الكبير مشروعه لنهضة مصر(٢٤) في مجالات التعليم وغيره وجاءت بعده مرحلة مصر الخديوية ، سايرت فيها الشخصية المصرية معطياتها بما تتضمنه من عوامل دافعة للتقدم تارة ، ودافعة للإحباط والشعور باليأس تارة أخرى وبعدها جاءت مرحلة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م فأصبح التعليم "كالماء والهواء ! " مشروعاً جماهيرياً . لا مشروعاً علمياً وبحثياً ، وهو ما انعكست نتائج تحصيله مع معطيات " الحداثة الغربية " في ذات الفترات الزمنية ، فصار المصري متلقياً لا مبدعاً حتى أن صفة الاستخدام للأشياء صارت عنده هي لب المعرفة الكامنة في بواطن الأشياء والمعطيات الفكرية والمادية ، فأصبح المصري يشعر بأنه إنسان يساير التقدم ولا يتخلف عنه !!؟ ولم يجد من يفيقه من غيبوبته !! التي أقل ما توصف بأنه يعيش حالة من الحداثة " القشرية " الواهنة ، والتشوه المعرفي ، ملتبساً عليه الفهم المعرفي الحقيقي في ما هو علمي وعلماني ، وحديث وحداثة ، وديني ودنيوي فأصبح يعيش حالة من الانتقائية يرتدي فيها ثوب الطاووس أحياناً ، وثوب القنفذ أحياناً أخرى .

٣. الفهلوة والتناقض مع الذات : الفهلوي والفهلوة مفاهيم " مجردة " لا وجود لها في الواقع المعاش ، ولكن يمكن تلمس سماتها وخصائصها في صورة أنماط سلوكية وردود أفعال ، ومشاعر وأحاسيس يتصف بها الأفراد في بيئات اجتماعية معينة ، وبنسب مختلفة قد تزيد وقد تنقص من فرد إلي آخر وفقاً للظروف والأوضاع المجتمعية والحراك الثقافي (٢٥) ويتحدد المفهوم واقعياً بداخل حزمة من القيم والممارسات السلوكية محكومة بعوامل الزمان والمكان وأوضاع البناء الاجتماعي التي ساعدت وأسهمت في تشكيل " الفهلوة " ومن أبرز سماتها التكيف السريع مع المواقف والتصرف وفقاً لمقتضياتها بمرونة وذكاء (٢٦) فضلاً عن المسايرة السطحية والمجاملة العابرة تغطية لموقف ما ، وتورية للمشاعر الحقيقية من خلال " النكتة " والمبالغة في توكيد الذات !!

وإزاحة المسئولية عنها بأساليب اسقاطية وتبريرية فعدم نجاح الطالب يعود إلي فشل المدرس أو الأستاذ في توصيل المعلومات ؟

فالفهلوي مطمئن نظرياً إلي عمله مع تقديم عمله الفردي وإيثاره على العمل الجماعي والرغبة في الوصول إلي " الهدف " بأقصر الطرق وأسرعها . مع العلم بأن الشئ الأكثر حيرة ودهشة أن هذا " الفهلوي المصري " يدرك تمام الإدراك أن بداخله تناقضاً مع الذات ما بين القول والعمل ، وما بين الظاهر من سلوكه ، وما يبطن به وتلك قضية أخرى في ازدواجية الشخصية المدرك وجودها وغير المُسلم بالاعتراف بها .

٤- سمة الخلاف على المتفق عليه : وهي حالة ناجمة عن تزايد التناسل والتكاثر الاجتماعي والثقافي ، مصحوبة بحالة من التكاثر العشوائي للسكان ، وتنوعت معها وتعددت الرؤى للذات والآخر حتى في المحيط الإقليمي المحلي الضيق (أبناء القرية) و (أبناء البادية) و (ناس بحري) في مقابل (ناس قبلي) و (البورسعيدية) و (الدمايطة) ..الخ فمن الطبيعي أن تنعكس تلك النرجسية في تمجيد الذات على حساب المصلحة العامة وإن كانت في محل ومقام المتفق عليه .

ورغم نسبية هذه السمة لا عموميتها ، إلا أن ما خلفته ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م من أحداث وتداعيات ترتب عليها ظهور ما يعرف " بديكتاتورية الجماهير " أو " الديكتاتورية الجماهيرية "كرد فعل للتظاهر في الميادين والساحات والشوارع ، وصارت التظاهرات توسم " بالمليونيات ! " من أجل رسم وصياغة واقع اجتماعي وثقافي وسياسي جديد ، فصار اتجاه الرأي الجماهيري هو المحرك للعمليات البنائية للمجتمع الجديد في الوقت الذي انزوى فيه ، وافلت المقومات والنظم المحركة لعمليات المجتمع في ظل البناء الاجتماعي والثقافي التقليدي الذي توارث لسنوات طويلة في التشريع والبناء والمقاصد المجتمعية .

تلك مرحلة زمنية فارقة لم تنته توابعها في الصدام والأداء والممارسة فيها ، فتظل سمة الخلاف على المتفق عليه من سمات الشخصية القومية المصرية ما لم يتضح أمامها وتتيقن من حالة استقرار " الغربال " الذي ما زال في حالة اهتزاز مستمر .

٥ – مدعاة للجدل تعشق العفاف في المستور وتشتهي ما تحت الغطا : ومع إيماننا

بعدم عمومية تلك السمة الشخصية أيضاً بين المصريين ، إلا أن التخوف من وجودها له ما يبرره في ازدواجية المعايير عند التعامل ، فنحن نكره نساء الغربيين على ابتزالهن وإباحية تبرجهن وفي ذات الوقت نقدر فيهن قيم النظافة والترتيب والذوق الاجتماعي السلوكي وبشاشة الوجه وحلاوة اللسان ، والجدية والمثابرة وعدم الكسل وعدم الخمول وتلك سيدة شرقية ، قل أنها محجبة " بغطاء الرأس " لكنها تبالغ في تعرية ملابس أبنتها التي لم تبلغ عامها السابع من العمر !! وآخر مؤمن متدين يحدثك ليل نهار عن الحلال والحرام ! لكنه يرفض إعطاء شقيقاته البنات ما استحق لهن من ميراث في ما ترك والدهم من ثروة موروثة شرعاً . فهو لا يدرك المستور من معاني التوجيه الإلهي في محكم آياته وإنما يتعامل مع المستور على أنه سلوك ناجز لمصالحه لا للمصلحة العامة وأداء الحقوق حتى وإن كان المستور على حساب أسس ومبادئ المعاملات ، مع يقينه بأن الدين المعاملة ! فتصبح المعادلة السلوكية في الواقع عكس ذلك " اللي تكسبه .. العب به هي شخصية مدعاة للجدل حين تدرك أن ما تقوم به هو " عمل " جاد ونافع ومفيد تراها تؤدي عملها أمامك في مساحة مفتوحة (USB) من طاقة الاستيعاب اللا محدود فتصبح متواصلة في عطائها ، وفي ذات الوقت لا تعمل عندما لا يروق لها العمل فترى أن ما يبذل من جهد في عمل كهذا !!؟ يكون عائده الضياع من الوقت والعزيمة .

تلك الشخصية المصرية القومية هي من بنت الأهرامات وصاحبة حق امتياز قيام الدولة كنظام سياسي ، وشيدت المعابد ، وعلمت الدنيا فنون الزراعة والصناعة والحرب والقتال ، والعلم النافع ، وهي من حفرت قناة السويس ، وبنت السد العالي ، وانتصرت في حرب ١٩٧٣ م ، وعبرت المانع المائي لقناة السويس ، وحطمت أسطورة إسرائيل في خط بارليف الحصين كأقوى مانع ترابي عبر التاريخ – كما كانت تعتبره إسرائيل هكذا _ هي صاحبة الاستحقاق الأول في قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ م عندما استشعرت

الاستبداد والطغيان ، ونبرة الاستعلاء في حاكمها (مبارك) وهي التي صححت مسارها في ٣٠ يونيو ٢٠١٣ م ، فعزلت رئيسها ، ماضية على طريق ثورتها .

٦ – المرح في أحلك الظروف : شخصية مليئة بروح السخرية والنقد والفكاهة والمرح في آن واحد ، لها طابع خاص في القدرة على السرد القصصي ، وأكثر الشخصيات القومية ميلاً " للكلام " عن الصمت !! لها فنونها في سرد القصص والحكايات والأمثال الشعبية ونظم الشعر ، والموال وقد يكون ذلك بسبب الدفاع عن الذات في مواجهة السلطة السلطوية ، أو الحاكم ، أو العزوف بطريقتها الخاصة عن عدم السير في تنفيذ بنود العقد الاجتماعي المبرم ، كل هذا يجعل الشخصية القومية تلجأ إلي ما يسمى " بثقافة الامتعاض " !! وبسببها تنتشر السلبية والتقوقع والالتفاف حول الذات، وهنا لا سبيل أمام الإنسان سوى التعبير عن تلك الحالة بروح من السخرية ، مقرونة بما يسبب لها قدراً من المرح والفكاهة حتى وإن كان في أداء " نكتة " عابرة تحلى بها وأجاد في أدائها أبناء الطبقة الاجتماعية الوسطى ، وهم صمام أمن الشخصية القومية المصرية عبر العصور داخل تفاعلات السلوك الإنساني في الحياة اليومية .

٧ – هي شخصية قومية : متفردة تاريخياً وحضارياً ، فالمصري متدين ، مبدع كلامياً متضخم الذات ، غير مهتم بالوقت ، متواكل أم متوكل إلا أنه في الغالب لا يخطط لحياته كريم ، سخي ، يميل إلي العزلة ، مداهم للغير ، متمرد ، يبالغ في الحزن ، يحتمي بالغيبيات ، غيور ، يجاري الآخرين على حساب نفسه ، قلق معاند ، فوضوي ، كسول فرعوني الجذور متسلط ، فاقد الثقة في الغير إلا إذا ثُبت له عكس ذلك ، خرافي التفكير معقد ، حقود بدرجة اقل ، متجمل لا يعترف بالكذب ، يميل غلي الهروب من المسئولية حال لا يروق له تحملها ، لا مبالي ، رغاااي ، متناقض ، كارزمي، يميل إلي التبرير مزدوج بين القول والفعل ، راكد العواطف الأسرية ، جامح الخيال ، سطحي التفكير ، عاشق لوطنه ، خفيف الدم ، حمال الأسية ، متسامح ، مخلص ، صبور، متواضع محب للآخرين ، سريع البديهة ، ذكي ، واعي لما يدور حوله ، محب للاستطلاع ، طيب المعشر ، ينجد الملهوف ، طموح ، متفاعل ، يرقص مع الراقص !، يغني مع المغني ! فانتزي ، رومانسي ، قاهر لأحزانه ، تهون عليه روحه فداءً لوطنه ،

المصري مركب حضاري في لغز مُحير للآخرين ، هو نتاج نطاقه الثقافي العام ، حافظاً لثقافته الفرعية حامياً لكيانه الإنساني .

خاتمة بلا نهاية :

يعد موضوع الشخصية القومية من أدق الموضوعات الذي يتناوله علماء الأنثروبولوجيا ، فالبحث في موضوع الشخصية القومية لم يكن وليد اللحظة ، ولا وليد الموقف ، ولا حالة تعبيرية لحدث ، وإنما الشخصية القومية هي نتاج متكامل لأرث حضاري وثقافي متوارث .. هذا الإرث الذي ساهم في بناء العقل الجمعي .. الذي هو منبت الثقافة .. والمؤثر في بناء الشخصية ومكوناتها عبر العصور .. وعليه مهما تعمق البحث في موضوع الشخصية في علاقاتها بالموروث الحضاري والمواقف الآنية ، فإن البحث لن ينقطع وإنما سيظل الباحثون يتابعون بحوثهم ودراساتهم بصورة متجددة وفي أداء لا ينقطع .. وسيظل البحث في موضوع الشخصية القومية خاتمة بلا نهاية .

الهوامش والمصادر

١. ذكر جون سيريل John Searle في كتابه بعنوان : العقل – مدخل موجز أن امتلاك الإرادة الحرة يرتكز دوماً على تجارب وحادثات سابقة من رصيد الحرية الإنسانية ، تجعل الشعوب لديها خبرة في صنع قراراتها فتصبح قادرة بحكم تجاربها الواعية أن تفعل شيئاً . John R. Searle , Mind : A Brief Introduction , Oxford University Press , New York , 2004

٢. أنظر في ذلك : محمد عباس إبراهيم ، نشاة الفكر الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٧ ، الإسكندرية .

٣. منظمة اليونسكو ، التقرير السنوي العالمي للعلوم الاجتماعية ، باريس ، ٢٠١٠ م .

٤. فتحي حسن ملكاوي ، منهجية التكامل المعرفي : مقدمات في المنهجية الإسلامية ، الناشر المعهد العالي للفكر الإسلامي ، الطبعة الأولى ، الرباط ، المغرب ، ٢٠١٢ م . (من مواليد الأردن ١٩٤٣ م حاصل على درجة الدكتوراه في التربية العلمية : فلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشجان الأمريكية) .

٥. محمد عابد الجابري ، الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ م

٦. محمد عباس إبراهيم ، الذات العربية والقيم الثقافية الغربية : بحث في الاتصال الثقافي مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول حول التعاون الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ، ٢٢ – ٢٦ يناير ١٩٩٤ م .

٧. محمد عباس إبراهيم ، الثقافة والشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠١٣ م

٨. محمد عباس إبراهيم ، علماء المسلمين والفكر الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ٢٠١٠ م .

٩. Eric Fromm , To Have or To Be , Boston , USA , 1979 وقام بترجمته إلي العربية : سعد زهران ، وراجعه : لطفي فطيم وصدرت الترجمة بعنوان الإنسان بين الجوهر والمظهر ، سلسلة علم المعرفة رقم ١٤٠ ، الكويت ، أغسطس ١٩٨٩ م .

10. Jonathan Israel , Radical Enlightenment , Oxford University Press , 2001 .

١١. ديمتري ميكس وكريستين فافار ميكس ، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية ، ترجمه عن الفرنسية فاطمة عبد الله محمود ، مراجعة محمود ماهر طه ، الألف كتاب الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، صدرت الترجمة عام ٢٠٠٠ م ص : ٩ – ١٢ .

١٢. أحمد عبد الله زايد ، تناقضات الحداثة في مصر ، دار عين للنشر ، القاهرة، ٢٠٠٥ م

١٣. محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية – سلسلة نقد العقل العربي (٢) الناشر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ م _ يجد القارئ الكريم شرحاً مفصلاً عن حالة ازدواج العقل والفكر في عرض الجابري بالقسم الرابع من الكتاب عن : تفكيك النظم وإعادة التأسيس صفحة ٤١٩ وما بعدها .

١٤. رالف لينتون ، شجرة الحضارة : قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث ، الجزء الأول ، ترجمة أحمد فخري ، تقديم أحمد زكريا الشلق ، المركز القومي للترجمة ، العدد ١٧٥٠ ، ٢٠١٠ ، القاهرة ، صفحة ٧١ وما بعدها .

١٥. جيلان عباس ، آثار مصر القديمة في كتابات الرحالة العرب والأجانب ، تقديم مختار السويفي ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٢ م صفحة ١١ .

١٦. سليمان أحمد حزين ، حضارة مصر : أرض الكنانة ، دار الشروق ، القاهرة، ١٩٩١م صفحة ١٥٠ وما بعدها .

١٧. عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، دار الفكر العربي ، القاهرة ٢٠٠٢ م .. وكما يقول المسيري : تشكل الفلسفة المادية البنية الفكرية التحتية أو النموذج المعرفي الكامن للعديد من الفلسفات الحديثة ، الماركسية ، والبراجماتية ، والداروينية ، كما تشكل الإطار المرجعي الكامن لرؤيتنا للتاريخ والتقدم والعلاقات الدولية والإنسانية . وقد ارتبطت الفلسفة المادية في عقول الكثيرين بالعقلانية والتقدم والتسامح ، كم هيمنة هذه الفلسفة على النخب الثقافية والفكرية لزمن ليس بالقصير . أما عن مفهوم العقل فهو في حد ذاته مفهوم عائم ، غائم ، ولكن المهم هو النموذج الكامن وراء العقل ، فهناك العقل المادي ، والعقل الأداتي ، والعقل النقدي .

18. Mark Curtis , Secret affairs : Britain,s Collusion with Radical Islam , E. book , London , 2012

١٩. محمد عباس إبراهيم ، الثقافات الفرعية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠١٠ م

٢٠. يعد كتاب يوشيهيرو فرانسيس فوكو ياما Yoshihiro Francis Fukuyama عن نهاية التاريخ والإنسان الأخير الصادر عام ١٩٨٩ م واحداً من أهم كتب نهايات القرن العشرين فوكو ياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ، يميل في تفكيره إلي تبني نزعة المحافظين الجدد ، ولد في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٢ م ، له كتاب آخر عن " الانهيار أو التصدع العظيم " تدور فكرته حول البحث في الفطرة الإنسانية وإعادة تشكيل النظام الاجتماعي ... تبنى فوكو ياما ضرورة كسب عقول وقلوب المسلمين حول العالم ، وتلك هي المعركة الأساسية لا المعركة العسكرية ، منتقداً في

ذلك سياسات جورج بوش ، وتخلى فوكو ياما عن نزعته المحافظة التي عُرف بها . وكتاب صامويل فيليبس هنتنجتون Samuel Phillips Huntington (١٨ أبريل ١٩٢٧ – ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٨ م أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد الأمريكية و الذي اشتهر بتحليلاته للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية) عن " صدام الحضارات " أهم كتاب في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين حيث ناقش هنتنجتون فيه بأنه ليس هناك من الحضارات من تستطيع الصدام مع فكرة قيام النظام الأمريكي (العالمي) الجديد !!؟

٢١. إدوارد وليم لين ، المصريون المحدثون : عاداتهم وشمائلهم ، صدر في عام ١٨٣٦ م وقام بترجمته إلي العربية : عدلي طاهر نور ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ م (Edward William Lane ولد في ١٧ سبتمبر ١٨٠١م – ومات في ١٠ أغسطس ١٨٧٦ م مستشرق إنجليزي أشتهر بمعجمه الكبير للغة العربية " عربي / إنجليزي " أقام وعاش بالقاهرة لمدة طويلة) .

٢٢. السيد عويس ، ملامح المجتمع المصري المعاصر ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢٣. هنري حبيب عيروط ، أخلاق الفلاح وعاداته في القرية المصرية ، رسالة دكتوراه مقدمة إلي جامعة السربون ، فرنسا ، ١٩٣٨ م وترجمت الرسالة إلي العربية تحت عنوان : الفلاحون . ولد هنري عيروط في ٢٠ مايو ١٩٠٧ م – ومات في ١٠ أبريل ١٩٦٩ م من أصل شامي نزحت أسرته من دمشق واستقرت بالقاهرة عام ١٨١٨ م كان والده مهندساً معمارياً ، فأهتم بتعليمه أفضل تعليم ، حتى أصبح هنري من الرواد الأوائل المهتمين بتنمية القرية المصرية .. وبعد أن حصل على الدكتوراه من السربون بفرنسا ، اتجه إلي الكهانة علي الرهبنة اليسوعية .

٢٤. نيفين سيف الله يسري ، قسمة : القدر العجيب لمحمد علي باشا الكبير مؤسس مصر الحديثة ، الناشر ، لورينتال ٢٠٠٥ م القاهرة ، صفحة ٣٨٠ وما بعدها (كم صدر الكتاب في صورة رواية أو سيرة ذاتية باللغتين الإنجليزية والفرنسية في سويسرا

برعاية الأميرة فوزية كريمة الملك فاروق والملكة فريدة ، حول سيرة الكبير ووطنه ، وحفر مجده على الساحة العالمية بشجاعة وإصرار ومثابرة . والمعروف أن محمد علي باشا الكبير ولد في قوَّلا بشرق اليونان في ٤ مارس ١٧٦٩ م ومات ودفن بالقاهرة في ٢ أغسطس ١٨٤٩ م لُقب بالعزيز أو عزيز مصر ، حكمها في الفترة من ١٨٠٥م – ١٨٤٨م .. هو باني مصر الحديثة ونهضتها في مجالات الزراعة والري والصناعة والتعليم والأسلحة ومؤسس أول جيش نظامي من المصريين عام ١٨٢٤ م .

٢٥. عزت حجازي ، الشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٥٠ ، أبريل ١٩٦٩ م صفحة ٤٢–٤٩ .

٢٦. السيد ياسين ، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٣ م صفحة ٢٢٦ وما بعدها .

مراجع ذات صلة :

- لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، من عصر إسماعيل إلي ثورة ١٩١٩م ، الجزء الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ م
- J.Timmons Roberts & Amy Hite , From Modernization to Globalization : Perspectives on Development and Social Change , Blackwell Publishers , USA , 2000 .
- عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للأمة العربية : دراسة في الهوية والوعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥ م .
- عصام الدين حواس ، إستراتيجية بناء الإنسان المصري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- أحمد أبوزيد ، هوية الثقافة العربية ، الهيئة العانة لقصور الثقافة ، وزارة الثقافة المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م .

• **John E. Joseph , Language and Identity : National , Ethnic , Religious , Palgrave Macmillan , New York , 2004 .**

• **جان بيير فارني ، عولمة الثقافة : وأسئلة الديموقراطية ، ترجمه عن الفرنسية عبد الجليل الأزدي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .**